الدوامة العراقية: تحليل سياسي للاضطراب الذي يعصف بمنطقتنا (2 من 2)

القاعدة دمرت بنايتين وأمريكا أطاحت ببلد كامل.. انها حرب جشعة خطط لها مسبقا ضد خصم لا يشكل تهديدا

في واشنطن لا توجد قيادة مستعدة للتغيير.. و فكرة القاعدة ستنتشر بشكل مقلق.. و علينا تعزيز القوى التقدمية

مولاي الأمير هشام العلوي*

هذه مقاربة يكتبها الأمير مولاي هشام، وفيها صوت تحذير ونذير، وتحليل لمخاطر الحملة الأمريكية على العراق والمنطقة العربية بشكل عام. وكما يقول الأمير، فورقته هي كلمة تحذير صريح من القادم الذي سيكون مأساويا وخطيرا، جراء غياب السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط، وعدم وجود استراتيجية خروج واضحة من العراق. ولكن الورقة تحمل دعوة صريحة لدعم القوى التقدمية، والقبول كذلك بمجريات اللعبة السياسية والديمقراطية في المنطقة التي قد تجلب معها أصواتا تعارض السياسة الأمريكية. ويرى الأمير المغربي أن التغيير في كل هذا، يجب أن ينشأ من أمريكا، التي تحتاج لإعادة فهم دورها في العالم، وتغيير استراتيجيتها، والعودة للمؤسسات الدولية والقانون الدولي.

"القدس العربي"

الإسلام الجهادي

لكن بدلا من العمل على عزل وتصفية هذا النمط من التيار الجهادي المتطرف، الأمر الذي كان يتطلب تواصلا سياسيا مع العالم الإسلامي، هذا بالإضافة إلى الإجراءات العسكرية والبوليسية المركزة، قررت الولايات المتحدة - على حد تعبير رامسفيلد "البطش بقوة، وكنس كل الأشياء، ما له علاقة وما لا علاقة له منها". لقد استخدمت الولايات المتحدة الحادي عشر من شتنبر بكونه حدثا كارثيا كما لو كان بيرل هاربر جديدا من شأنه أن يحول إستراتيجيتها الأحادية الجديدة للأمن القومي أمرا مستساغا من الناحية السياسية. وبذلك ، تحول مشروع عزل وتصفية القاعدة إلى "حرب عالمية رابعة".

كان بإمكان القاعدة الإطاحة ببنايتين، أما جيش الولايات المتحدة الأمريكية فبإمكانه الإطاحة ببلد بأسره. بغزوها للعراق، لم تواجه الولايات المتحدة تهديد القاعدة لها ولكنها زادت من المخاطر المحدقة بالجميع. إذا كان الحادي عشر من شتنبر. قد خلق حالة متفجرة في العالم فإن غزو العراق هو الذي فجر العالم. لقد غيرت الولايات المتحدة العالم تارة أخرى بحيث أصبح أكثر خطورة، وذلك من خلال استخدامها للقوة الغاشمة لفتح جبهة معركة جديدة لا يمكن التكهن بما ستؤول إليه أو بالمدى الذي ستستغرقه أو الدمار الذي ستجلبه. لقد شنت الولايات المتحدة الأمريكية ما وصفه مسئول كبير في وكالة المخابرات الأمريكية (السى آي إيه) بالحرب الجشعة، إنها حرب أعد لها مسبقا، ولم تأت ردا على استفزاز أو استثارة، حرب شنت ضد خصم لم يكن يشكل تهديدا يذكر وفي تحد صارخ للقانون الدولي والمجتمع الدولي ودونما تخويل من أي قطاع من قطاعات الشعب العراقي، الأمر الذي جعل الولايات المتحدة هدفا للمقاومة. حتى الرئيس بوش أقر بأنه ما كان ليرضى بالاحتلال الأجنبي لبلده.

وأما فيما يتعلق بتأثير الحرب على التيار الجهادي المتطرف حول العالم، فلا يوجد أفصح مما ورد على لسان مسئول عمليات ملاحقة ابن لادن في المخابرات المركزية الأمريكية (السي آي إيه): لم يكن ثمة ما يطمح إليه ابن لادن أكثر من الغزو ثم الاحتلال الأمريكي للعراق.

إن من العوامل التي تجعل هذه الدوامة حالة مثالية ذلك التكامل ما بين عقائد المحافظين الجدد وعقائد الجهاديين. فكلا الطرفين رؤيوي وكلاهما استبدادي: الشر في عرفهما هو العدو، والحرب في فهمهما شاملة، ولسان حالهما يقول: "لا نملك التنازل عن شيء، فإما أن تكون معنا أو تكون ضدنا". وكلاهما يثير حفيظة من يستمع إليه جراء استغلالهما استغلالا بشعا للعقائد والشعارات والمخاوف السائدة وما يصاحب ذلك من تحليلات على درجة كافية من الذكاء لأوضاع خصومهم، وكذلك من استحضار للتهديدات وارتكاب للجرائم. كلاهما يفهمان بأن الفعل الدرامي والحاسم مهما كان بغيضا فإنه يوجد منطقا سياسيا وعسكريا لا يقاوم ومن شأنه أن يدفع بقضيتهم إلى الأمام. ولكن للأسف، وهذا هو الأهم، فإن عقيدتيهما هما العقيدتان الأكثر بروزا والأكثر إلحاحا والأكثر ثباتا والأكثر فعالية في عالم كل منهما سياسيا وثقافيا. ويبدو البديل ضعيفا ومترددا وعسيرا على الفهم، ويبدو متنازلا وعديم الفعالية أيضا. ولا يحتاج المرء لأن يبالغ في وصف قوة الأيديولوجيا بما تشتمل عليه من مفردات وأفكار ولغة وثقافة في مثل ما نحن فيه من أزمة. مع ملاحظة أن المشهد الأيديولوجي بشكل عام لا يشجع، ولعل أهم ما يتعلق بهذه الدوامة هو غياب أيديولوجيا بديلة قوية.

شارون و أسلحة أمريكا التي تدمر فلسطين

العنصر الثالث في هذا المزيج المضطرب هو الصراع الإسرائيلي - الفلسطيني، والذي كان قد وصل إلى نقطة حرجة في الوقت الذي أخذت حركية "الحرب العالمية الرابعة" تظهر على السطح. حينما حل الحادي عشر من شتنبر كانت عملية أوسلو للسلام قد تدلت من حبل المشنقة، وكانت الانتفاضة الثانية في تنام، ودائرة

الاغتيالات الإسرائيلية والتفجيرات الانتحارية في تصاعد. منذ ذلك الحين والعالم العربي والعالم الإسلامي، بل وكل العالم، يرى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية وهو يتخلى عن عقود من السياسة الدولية والأمريكية ليعتنق أجندة اليمين الإسرائيلي. لقد شاهدنا الرئيس الأمريكي يتحول خلال أيام من موقف المطالب بحزم بانسحاب إسرائيلي مباشر من المناطق التي أعيد احتلالها إلى موقف المتقبل لسياسة شارون التي دمرت عملية السلام وأتت عليها بأسرها، وشاهدناه يكيل له المديح ناعتا إياه برجل السلام. وفي سلسلة من التقلبات التاريخية غير المسبوقة شاهدنا الرئيس الأمريكي يقترح "خارطة طريق" غير قابلة للتعديل بالتعاون مع الرباعية الدولية ثم رأيناه يلتف حول الرباعية ليتجاوزها ويتبادل بشكل منفرد رسائل مع شارون .

وها هو الآن قد ذهب إلى أبعد من ذلك ليقبل ليس فقط وجود المستوطنات بل وأيضا توسيعها. وبذلك، ودون استشارة الفلسطينيين تكون الولايات المتحدة قد سوت قضايا الوضع النهائي كالمستوطنات واللاجئين والتي طالما أصرت فيما قبل على أنها قضايا لن تسوى إلا بالتفاوض ما بين الطرفين الفلسطيني والإسرائيلي. وقبلت الولايات المتحدة، رغم أنها كانت تصر على أنها لن تقبل، فرض الوقائع على الأرض كما أرادت إسرائيل وكما تمخضت عنه سياستها الاستيطانية بهدف إجبار الفلسطينيين على قبول هذا الوضع. وها نحن نرى الولايات المتحدة تقر الإسرائيليين على كل مشروع يؤدي حسب تعبير باروخ كيمرلينغ إلى "الإبادة السياسية" للفلسطينيين بما في ذلك حملة الاغتيالات التي لا تكاد تتوقف للزعماء السياسيين في الساحة الفلسطينية، والاحتفاظ بالمستوطنات في الضفة الغربية بل وتوسيعها، وبناء الجدار أو ما عبر عنه ب "شبكة الأقفاص" التي تجمع ما بين الفصل العنصري (الأبارتايد) والإقصاء الجماعي (الغيتو).

وبينما يحتل جيش الولايات المتحدة بغداد فإن الأسلحة الأمريكية تستخدم لإحلال الدمار وإنزال الكوارث بالمدن والأراضي الفلسطينية. بالطبع، فإن العرب والمسلمين - وليسوا في هذا وحدهم - سيربطون ما بين الحدثين. ومن الطبيعي أن ينشأ "لواء الشيخ ياسين" في بغداد، ومن الطبيعي أن نشهد مزيدا من العسكرة الإسلامية في صفوف المقاومة الفلسطينية وفي صفوف التمرد العراقي على حد سواء. وقد يأتي الوقت، بالطبع، الذي يتحول فيه الغضب الفلسطيني تجاه الأمريكيين، ولكن يكون ذلك من باب المصادفة.

أشعر بأن من الضرورة بمكان التأكيد على نقطة واضحة في أذهان العرب والمسلمين، وكذلك في أذهان معظم الناس في بقية العالم، ولكنها غير مفهومة ولا تعرض بشكل جيد داخل الولايات المتحدة الأمريكية. من الواضح بأن الحرب في العراق والاحتلال هي القضية الملحة التي تواجه عالمنا اليوم. إلا أن المشكلة المركزية والأساسية في المنطقة، وحجر الزاوية في السياسة الدولية وخاصة فيما يتعلق بصلة الولايات المتحدة الأمريكية بالعالم وكذلك بصلة الغرب بالعالم الإسلامي، هي القضية الفلسطينية. إن معاناة الفلسطينيين هي أكبر وأقدم قضية ظلم في العالم، وهي القضية التي تجد صدى لدى عموم الناس حينما ترد في خطابات أسامة بن لادن. إنها اليوم موصولة بقضية احتلال العراق بل وتكتسب منه مزيدا من الأهمية، إنها القضية الأكبر والأهم على الإطلاق.

يرى العالم الآن الدعم المستمر وغير المشروط الذي تحظى به السياسة التوسعية الإسرائيلية والأجندة الليكودية. وهذا الدعم هو الذي يشجع الإسرائيليين على الإمعان في صلفهم، والكل يعرف ذلك. ولا يبدو أن مثل هذا الدعم قابل للتغيير أو حتى المناقشة داخل الولايات المتحدة الأمريكية نظرا لأن كلا الحزبين السياسيين الرئيسين ملتزم به. وهذا ما يدفع كثيرا من الأمريكيين، وخاصة ذوي الميول التقدمية، نحو حالة من اليأس، فتراهم يؤثرون تجنب الموضوع. ولكن، ولأسباب عديدة، لم يعد مثل هذا الخيار ممكنا.

ابتداء، إن دور الفكر المؤيد لإسرائيل ضمن أيديولوجية المحافظين الجدد، و دور الاهتمامات الإسرائيلية ضمن الإستراتيجية الأمريكية التي يجري تطبيقها على الأرض أصبحا من القضايا المعلومة بالضرورة، ولم تعد خافية على أحد. ولذلك فإن من عدم الأمانة تجنب الحديث فيها والتناقش حولها. وكما رأينا، فإن الإصرار على أن المصالح الأمريكية لا يمكن أن تفصل عن المصالح الإسرائيلية هي من الخصائص المميزة لتصور المحافظين الجدد ورؤيتهم للعالم. لقد اعترف عدد من كبار المسئولين في الإدارة الأمريكية، كما اعترفت صحيفة ال"ديلي فورارد" - وهي أقدم صحيفة يهودية - بأن تأمين مصالح إسرائيل كان واحدا من دوافع الصقور المؤججين للحرب وبأن الزعم بأن أمن إسرائيل كان الدافع الحقيقي وراء غزو العراق لم يعد ممكنا الاستمرار

في الحديث عنه بصوت خافت أو رفضه نهائيا بحجة أنه يعبر عن موقف متعصب. وعلى الذين يعارضون ذلك أن ينبروا للدفاع عن رأيهم حسبما تقتضيه المسألة.

أضف إلى ذلك أن إسرائيل الآن تواجه نقطة ضعفها الأساسية، التعداد السكاني، وهو الأمر الذي لا يحظى منها بإجابة سياسية مقبولة، ولا تملك تجاهه سوى الأسلحة والجدران. إن تقوية موقف إسرائيل هو الأمر الملح الذي استدعى فتح الطريق أمامها لتصبح القوة الإقليمية المهيمنة التي لا قبل لأحد بتحديها. فالقضية تتعلق بإنهاء الدعم الذي تقدمه الأنظمة العربية للقضية الفلسطينية ولو تطلب الأمر قلب هذه الأنظمة فليكن. ولعل ذلك يتعلق أيضا بتكثيف العلاقة الحميمة التي تربط ما بين الولايات المتحدة وإسرائيل، وبهذا تروج فكرة أن الولايات المتحدة شريك لإسرائيل في احتلال واستعمار الأراضي العربية والإسلامية، وشريك لها في الصدام مع العرب والمسلمين ككل والذين يعتبرون في هذا التصور عدوا شريرا ما الشعب الفلسطيني فيه إلا عنصر آخر من عناصر الشر. في مثل هذا السياق بإمكان إسرائيل أن تأمل بأن عدم مشروعية إستراتيجيتها الاحتلالية الاستيطانية في عيون المجتمع الدولي ستصبح مثار نقاش وخلاف، وأنها بذلك ستجد الطريق لحل أزمتها السياسية والسكانية العميقة من خلال فرض أي حل تريده على الشعب الفلسطيني. أعتقد بأن الأمن الحقيقي لإسرائيل إنما يكمن في قبول الحقوق المشروعة للفلسطينيين والعيش في تعاون سلمي معهم كشركاء متساوين.

إن تشبث الولايات المتحدة بموقف متطرف يرى بأنه يجوز لإسرائيل ما لا يجوز لغيرها من شأنه أيضا أن يضعف أي برنامج للشرعية والتعاون الدولي. فالاهتمام بقضية انتشار السلاح النووي على سبيل المثال لن يكون له أدنى مصداقية طالما أن إسرائيل يسمح لها بتطوير ترسانة نووية مهولة دون أي قيود. كما أن القانون الدولي يفقد قيمته حينما يتخلى رئيس الولايات المتحدة والكونغرس فيها فعليا عن المواقف التي طالما تمسكت بها الأمم المتحدة.الإدارات الأمريكية السابقة كأساس لأي حل شرعي، وحينما يشجعان إسرائيل على تجاهل سلطات المحكمة الدولية فيما يتعلق بجدار العزل. مثل هذه الأعمال تبين بجلاء للعالم بأسره أن الولايات المتحدة تضع نفسها وحليفها المفضل فوق القانون، الأمر الذي يستحيل معه الدفاع بأمانة عن المبدأ القائل بضرورة تقييد المصالح القومية من خلال التطبيق العادل للقوانين والاتفاقيات الدولية.

ولكن من المحتمل أن المنطق السياسي والعسكري للحرب في العراق سوف يدفع، فعلا، الولايات المتحدة وإسرائيل نحو الاشتراك في عواقب الاحتلال ونحو الإغراق مجددا في الإصرار على فكرة أنه يجوز لهما ما لا يجوز لغيرهما بينما تسعيان لإجبار الشعبين العراقي والفلسطيني على الخضوع والاستسلام. وهذا في نهاية المطاف لن يؤدي إلا إلى مزيد من العزلة ومزيد من الخصومة من قبل شعوب المنطقة وشعوب العالم، وسوف يكشف عن نقاط الضعف فيهما، ويكثف من اعتمادهما على القوة العسكرية. يجب ملاحظة أن ذلك جانب مهم من الحركية المزعجة التي نحن بصددها، ولا نملك تجنب الحديث عنه وتناوله بالنقاش.

باختصار، إذن، إن هذه الدوامة التي صنعتها الحركة الجهادية التي شنت الهجوم يوم الحادي عشر من شتنبر وأزمة الصراع الإسرائيلي ـ الفلسطيني، والحرب على العراق تشكل مجتمعة قوة جذب لا تقاوم تقريبا تجاه مزيد من الصدام والمخاطر في العراق وفي العالم.

العقد المقبل بدون بشائر

وفي مواجهة كل ذلك، فإن آفاق المستقبل للسنوات العشر القادمة لا تبشر بخير. فثمة حركية في الشرق الأوسط وفيما يليه، تحمل في طياتها أخطارا بالغة، وليس بإمكاننا رؤية اتجاهها ولا هدفها، بل ليس بإمكاننا تصور شيء من ذلك. فبالإضافة إلى الصدام المسلح في العراق فإن لكل من إيران وكردستان والمملكة العربية السعودية وسورية مشاكلها الخطيرة والتي تتطور بشكل لا قبل لأحد التكهن به. وكما أشرت آنفا، فقد تراجعت الخيارات التقدمية أمام تيار من الغضب القومي والديني وبسبب الخوف أيضا. وها هي حالة الاضطراب والفوضى تسدل ظلالها عي المنطقة بأسرها.

من الواضح أن العراق هو المكان الأكثر خطورة. فهناك فيه مزيج مربك من اللاعبين الذين توافدوا بأعداد كبيرة على هذا الملعب الجديد والذي لا يمكن التكهن بمآلاته. ليس واضحا من يقوم بماذا ومن يتحمل المسؤولية عن أي شيء، ولا قبل لأحد بالجزم بمن يتحالف مع من ولا بطبيعة أو تفاصيل الخطط والبرامج لكل واحد من هؤلاء اللاعبين. ولا أحد بإمكانه تصور ما ستؤول إليه التفاعلات العرقية والدينية والقومية. فحتى الولايات المتحدة الأمريكية تبدو متهافتة في مسالكها ومواقفها. إن الشيء الوحيد الذي يجمع عناصر تيار التمرد والعصيان، ويضمن بذلك استمرار الصراع، هو مناهضة الاحتلال الأمريكي للعراق. وفي مثل هذه الظروف، ومن وراء واجهة السيادة، فإن عملية التحول نحو الديمقراطية يمكن أن تؤدي إلى "البعثنة" دون العنصر التكريتي. فحكومة علاوي تهدد بإعلان حالة الطوارئ وتحمل نفسها مسؤولية كل الإجراءات التي تقوم بها القوات الأمريكية. في دولة ضعيفة تواجه تمردا عاما من قبل جماعات غير معروفة، يكاد يستحيل أن تنجح أي عملية جادة للتحول نحو الديمقراطية. فحينما يكون النظام الذي يتعرض للهجوم في أعين الناس أداة اختارتها القوة الغازية والمحتلة ولا يملك من مقومات الوجود سوى ما يتوفر له من حماية عسكرية وأدوات بطش أمنية من قبل الجيش الغازي نفسه، فسيكون من الصعوبة بمكان الحفاظ على الوجود دون اللجوء إلى جرعات ضرورية من القمع. يمكن للعراق أن يدجن ولكن ذلك لن يكون بدون الجيش الأمريكي ولن يكون بلا تكلفة إنسانية وسياسية باهظة.

فيما وراء العراق، لقد أصبح العالم كله أكثر خطورة. بل لقد تحول الشرق الأوسط بأسره إلى بؤرة متأججة، وصار العراق وما حوله قطبا يجذب إليه المتطرفين من كل حدب وصوب، وغدا مرتعا للقاعدة ومن يدعمها. ما من شك في أن الاحتلال الأمريكي لبلد عربي وإسلامي يمثل فرصة تجنيد للجهاديين المتطرفين من كل أنحاء العالم.

في نفس الوقت فإن إضعاف العراق من شأنه أن يجذب اهتماما جديدا وعدوانيا تجاه إيران وسورية والمملكة العربية السعودية. فموقف إيران المعزز، ونفوذها بين شيعة العراق، وبرنامجها النووي، كل ذلك يسلط الضوء عليها كهدف محتمل، ويمكن أن يقال الشيء ذاته فيما يتعلق بنفط المملكة العربية السعودية وحركتها الوهابية. وها هي إسرائيل تهدد إيران. منذ أن غدا العراق خارج اللعبة، وبسبب نجاح الولايات المتحدة في إنجاز سابقة في مجال الضربات الاستباقية، ونظرا لاقتراب موعد الانتخابات الأمريكية، فلا يوجد الكثير مما يمكن أن يحول دون مثل هذه المغامرات الخطيرة.

كما أن العالم أكثر خطورة بسبب انعدام سيادة القانون. فالولايات المتحدة، البلد الذي طالما صدر عنها أكبر دعم خطابي ودبلوماسي للقانون الدولي وللأعراف الدولية منذ الحرب العالمية الثانية، قد تخلت فعليا عن ذلك الموقف لصالح سياسة منفردة شعارها "ما دامت لديك القوة فأنت على حق مهما فعلت". الضربات الاستباقية والشبكة الواسعة من السجون التي يعتقل فيها "المقاتلون الأعداء" و"المعتقلون الأشباح"، والمعالجة العقابية والاستجوابية، هي الأعراف الجديدة في العراق وفي غيره. يسود الآن خلق جديد مفاده البطش دون تمييز، يدعمه جيش إمبريالي يسير في ركبه جيش آخر من المرتزقة المتعاقد معهم والذين لا يوجد سبيل واضح لمساءلتهم ومحاسبتهم، يواجهون معا عصابات من "الإرهابيين" الذين يقطعون الرؤوس ويعملون خارج حدود القانون .

لقد تم تأجيل إمكانية تطبيق أجندة سياسية إيجابية، بل لقد تم التخلي تماما عن الفكرة. ففي العالم العربي، تم الآن تأخير الإصلاحات الديمقراطية الملحة إلى أن يتم حل الأزمة التي نجمت عن غزو العراق ثم احتلاله، ولا يدري أحد متى يمكن التوصل إلى حلها. كما تم إيذاء الأجندات التقدمية، التي ما لبثت أن فقدت مصداقيتها، بسبب حالة الفوضى العارمة وانعدام القانون التي وصفت آنفا. التعذيب والاضطهاد والاعتقالات والضربات الاستباقية غدت ردودا مشروعة على كل ما يهدد الأمن القومي. وقد تظن الولايات المتحدة بأن لها أولوية أخلاقية على بلدان أخرى، الأمر الذي يعفيها من كل قاعدة تصر هي على الآخرين أن يلتزموا بها. إلا أن الدول الأخرى والزعماء الآخرين يرون في ذلك نموذجا لا استثناء. وتظل الولايات المتحدة رغم ذلك كله دولة ديمقراطية بما يعنيه ذلك من بناء دستوري من الأدوات والإجراءات الرقابية والحسابية حيث بإمكان المواطنين أن يصححوا أخطاء حكومتهم، ويمكن الإشارة على سبيل المثال إلى قرار المحكمة العليا الأخير بشأن المعتقلين وبشأن هيئة التحقيق في أحداث الحادي عشر من شتنبر. معظم بلداننا لا تتمتع بمثل هذه المؤسسات القوية والتقاليد الراسخة. وهذا من شأنه أن يفاقم من الآثار السيئة لأسوأ نموذج. إذا كان بإمكان الولايات المتحدة الأمريكية أن تعتقل من تشتبه بعلاقتهم بالإرهاب وأن تحتجزهم سرا وإلى الأبد وبلا محاكمة، وإذا كان لها أن تعرضهم لما لا نعرف من الأذى، لكم أن تتصوروا ما سيكون عليه موقف أي ديكتاتور محلي والذي يعتبر أن دولته أكثر عرضة للتهديد من قبل المعارضين والمتمردين. وفي خضم كل ذلك تجد جماعات المعارضة التقدمية نفسها بين شقي الرحى، فهي تواجه الأنظمة السلطوية التي اكتسبت مزيدا من النفوذ مؤخرا من جهة، ومن جهة أخرى تجد نفسها في مواجهة مزيج من الجماعات القومية والدينية الغاضبة والمتفجرة.

أمام كل هذا، فمنظور قيادة الجهاديين، "الإرهاب" وتكثيف دائرة الهجمات والانتقام أصبح واضحا. ولأن أمريكا، هي الدولة العظمى التي قد تجر الآخرين إلى دوامة الحرب، فان كبح هذه الديناميات يتطلب من أمريكا تغيير سياستها وتوجهها، في كل من العراق و "الحرب على الإرهاب". فالجيش الأمريكي في العراق يعتبر المصدر الرئيسي لعدم الاستقرار، ولن يكون مصدرا للاستقرار. وأيا كان اثر خروج الجيش الأمريكي، فيجب ان يخرج وبسرعة. ولكن من خلال فعل كهذا، فإنها ستعترف، بطريقة واضحة، وبدون كلام، بخطأ الغزو نفسه. والأحزاب السياسية الأمريكية، أيا كان منها غير مستعد، لتبني هذه الإستراتيجية. ولا يوجد احد يصر على طموحه ببناء أو التمسك بقواعد في العراق. وحتى لو فاز الديمقراطيون في الانتخابات، فإنهم سيواجهون استفزازا من الخطاب العسكري اليميني المتطرف الذي يتسيد السياسة والإعلام الأمريكيين. ومن المتوقع أن يبقى الأمريكيون في العراق، ويبحثون في الوقت نفسه عن طرق لسحب الجزء الأكبر من القوات، وترك قوات دائمة وحكومة مذعنة للسياسة الأمريكية في المنطقة، والتي ستوقع لأمريكا على انتصارها. هذا خطأ، وهذا يعني سنوات طويلة من النزاع في العراق وغيره، ولكن هذا الذي يجب أن نتوقعه.

في الحقيقة، لا يوجد أي موقف، فلا أمريكا ملتزمة بإنشاء حكومة عراقية مذعنة، أو أنها مستعدة للقبول بدولة عراقية مستقلة لديها القدرة على رفض السياسة الأمريكية في المنطقة. وفي حالة التزام واشنطن بالأخيرة، فانه بإمكانها استبدال قواتها بقوات متعددة الجنسيات، والعمل على بناء قوات الأمن العراقي، والتخلي عن السيطرة السياسية لحكومة مؤقتة أو كيان تحت إشراف دولي، وإجراء الانتخابات، والتخلي عن أي وجود عسكري دائم في البلاد. وإذا أرادت أمريكا الإذعان، فعليها التقدم للأمام، ومنطق الأحداث سيدفع باتجاه أجندة المحافظين الجدد، حتى تواجه مقاومة كبيرة. وعندما يؤكد كلا المرشحين أن الحرب صحيحة، ويعرف ما يعرف الآن، وانه سيبدأها من جديد، فمن الواضح على أي طريق نسير الآن.

أيمن الظواهري قال في نهاية عام 2002 "نشكر الله على نعمة الصبر على مأساة العراق بعد أفغانستان". و"الأمريكيون يعانون من وضع حساس في كلا البلدين، إن سحبوا قواتهم، فسيخسروا كل شيء وان بقوا فسينزفوا للموت". يفهم المحافظون الجدد هذا جيدا: لا تستطيع البقاء، وإلا فانك ستنزف حتى الموت، وعليك إما الخروج أو الالتفاف نحو الأمام. ويعمل المحافظون الجدد بناء على سيناريو يقوم على قاعدة ان يمنع السياق السياسي والإيديولوجي الأمريكي أي انسحاب، وفي هذا فهم محقون. فأمريكا لا خيار أمامها، ولهذا فإنها ستذهب وراء الخيار الأسوأ.

الحاجة الماسة للقوى التقدمية المدنية

وإعادة عجلة الدينامية هذه يقتضي بالضرورة إعادة تفكير معمق بدور ومكانة أمريكا في العالم، إعادة تشكيل لسياستها خارج الحدود، والتزام جديد بالقانون الدولي ومؤسساته. وهناك قطاعات كبيرة من مجتمعاتنا لا تزال تأمل أن يكون لأمريكا دور في تشجيع عمليات إدخال الديمقراطية. والتغييرات في السياسة الأمريكية التي تجعل من هذا الأمل ممكنا، تقتضي أن على أمريكا أن تفهم من بين أمور أخرى، ان الديمقراطية لا تبنى إلا بالتشارك مع القوى التقدمية في المجتمع، وهذا التغيير هو عملية تاريخية، طويلة ومعقدة ومتناقضة في نفس الوقت. ويقتضي هذا ان الجماعات ذات الأجندة المعارضة لأمريكا قد تكون لاعبة موثرة في هذه العملية. ولكن القيادة السياسية ذات الاستعداد لمثل هذه التغييرات غير موجودة الآن في الولايات المتحدة، نحن الآن في مركز الدوامة.

تغيير في المناخ السياسي عبر أوروبا هو إمكانية أخرى. وفي حالة تعزيز الأوروبيين لموقفهم البعيد عن الاقتصارية الأمريكية، والتمسك وبقوة بالعودة لدور المؤسسات الدولية، واقتراح بديل سياسي وإيديولوجي، مما سيمنع النزاعات الدائمة نحو الحروب الكبيرة. هذا يدعو، أكثر من أي شيء آخر، للاستقلالية والوحدة أكثر مما نتوقع. ولكن السكان المسلمين في أوروبا لهم دور ليلعبوه. وفي الوقت الذي يندمجون فيه في المجتمعات الأوروبية، فان ثقافتهم ودينهم سيؤثر ويتأثر بمناخهم الجديد. وبشكل متبادل فسيؤدي هذا لنشوء سياسة خارجية جديدة، مختلفة وأكثر استقلالية.

ولتغيير هذه الدينامية بشكل ايجابي، نحتاج أيضا إلى تعزيز القوى السياسية والإيديولوجية التقدمية في منطقتنا وفي العالم الإسلامي. والآن نستطيع رؤية بعض التغييرات الايجابية. في تركيا، مثلا، دخلت الأحزاب الإسلامية العملية السياسية بطريقة معتدلة ومؤثرة، وتقوم بمهارة جيدة وسياسات تحاول فيها تجنب الوقوع في الشرك العراقي، وفي اتجاه آخر تتجنب المواجهة مع القوى العلمانية التقليدية في البلاد. ولكن علينا النظر إلى الغموض والتشوش السياسي في فلسطين والعراق، والشلل السياسي في الدول العربية الأخرى، لكي نرى المنظور الدقيق لحدوث أي تغيير سياسي في المستقبل القريب. علينا ألا نتعامل برومانسية مع مجتمعاتنا ومقاومتنا. وكما قلنا في السابق، فإننا سنرى انتشارا مثيرا للقلق ل"شركة" تنظيم القاعدة وإيديولوجيتها. وعملية إدخال الديمقراطية، قد تعني اسلمة في بعض المناطق. وفي الوقت نفسه، فالقوى التقدمية في المجتمع المدني، قد تجد انه من الصعب عليها السباحة ضد التيارات خوفا من الوقوع في شرك التطرف.

وستكون هذه القوى، هدفا سهلا للحكومات الديكتاتورية في المنطقة، والتي تستطيع الآن تجاهل المطالب المتناقضة والغامضة لنشر الديمقراطية وحقوق الإنسان من الغرب، وكذلك العمل على اتخاذ إجراءات أكثر شدة لقمع العناصر الإرهابية التي صارت تعرف الآن بالإرهابيين. ومع ذلك، فهذا كفاح علينا الإعلان عنه، ماذا نتوقع، على الأقل، في السنوات القليلة القادمة، نتوقع توسعا في دوامة العنف في الشرق الأوسط.

*** عضو في الأسرة المغربية المالكة**